حديث السطور

يشفي الصدور

حدثنا ابن عربان قال:

«جلست في ركني المعتاد، أتأمل الصور من جديد، صور أبي العيال مع الأطفال، صور تحمل البهجة للنفس في غمرة اليأس...
وتنقل الشعور بالفرحة والإشراق للقلوب التي طال بها الأسى وعصفت بها الأشواق، وتشيع عبير الحبور في أجواء لفهاً ضباب العسف والجور...

وجوه ـ في الصور ـ تنطق بالسعادة، تغمرها الفرحة بعناق الطبيعة الخلابة...
تحيط بها من كل جانب: سماء صافية إلا من سحابات الأمل، وأرض زاهية بابتسامات الندى والطلل، قمم خضراء وارفة، سواق وعيون تنهمل وتفيض نضاخة وجارية.

وأردف ابن عربان يقول:

«تأملت الصور مراراً قبل أن تمتد يدي إلى خطاب أبي العيال..
كنت أستمهل نفسي في فتح الخطاب والنظر فيه..، كالطفل يطيل تأمل الحلوى، يقلبها بين يديه..، قبل التهامها... فتزداد مع اللهفة متعته..، وتتسع مع الشوق فرحته...

فتحت الخطاب، فطالعني تاريخه الذي يشير إلى انقضاء شهور قضاها سائحاً في دهاليز البريد البعيد والقريب...
وأدركت علة ما آل إليه من رثيث حال وطول إهمال عندما لمحت على غلافه الرث علامة تشير إلى أنه قد فتح بمعرفة الرقيب.
فلا أدري كم رقيب تداول فتحه والنظر فيما يكون قد انطوى عليه من أسرار تلحق بالأمن القومي أشد الأضرار...!!

بدأ الخطاب باسم الله وبالصلاة والسلام على رسول الله...
حاملاً شوق أبي العيال الكبير لي ولكل الكرام في مجلس الكرام...

باثاً صادق الود والإخلاص لكل الأهل والناس...

مستعيداً ذكرى الأيام السعيدة مع الصحبة الحميدة...

وقصص الاستثمار الحلال وغير الحلال..، في الديار وخارج الديار.. بالين والدولار...

مما كان لأبي الهول فيه صولات وجولات طوال..، لم يبسم له فيها الجد ولم يسفعه الحال..،

طالباً من الله الرحمة لأبي الهول..، مستأمناً أن نطيل الجلوس على الشاطىء الطويل..، وأن نعيد النظر في الرمال..، لعل وعسى أن ينفرج الشاطىء أو تفصح الرمال عن أثر أو شاهد يحي الأمل في ما انتهى إليه أبو الهول من مآل...

وتابع ابن عربان يقول:

«وجدتني لا أقدر على كتمان العبرات مع ما أثاره خطاب أبي العيال بي من خواطر وذكريات..

وما حملني به من سلام ينطق بالصدق والوفاء للربوع التي عاش فيها ردحاً من العمر أنيساً مؤنساً..، جاداً ومخلصاً...

للشواطىء التي شهدت حبو الطفولة...، للأفنان التي طربت بعبث الصغار..

لصفوة الناس في مجلس الكرام الأنيس...

للمحار في الشواطىء التي رحل إليها أبو الهول يحدثها عن لعبة الأقدار...

ثم انتقل ابن عربان إلى القول:

«شرع خطاب أبي العيال بعدها يسرد مجمل أخباره بعد رحيله عنا..

كيف حاول العيش في المدينة التي غادرها قبل سنين ـ في رحلته إلينا ـ هادئة ناعمة..، وديعة آمنة...،

فعاد إليها وإذا بها كأنها تتهيأ ليوم الحشر يتخبط بها البشر كمن أصابه الشيطان من المس...

يتخاطفون الأرزاق بلي الأذرع ومسك الأعناق..

بالغش والتدليس. . ، بالهوان والنفاق. . .
فلم يطق العيش في المدينة. . .
فارتحل إلى أرض له في الجبال. . .
موروثة من أجيال. . .
فأصلحها بعد إهمال. . .
واستقر به فيها الحال. . .

قال ابن عربان:

«وكان مما جاء في خطاب أبي العيال في وصف تلك الحال قوله:

«ضربني الوجوم ـ يا ابن عربان ـ وأنا أقلب وجوه القوم. . ، وأرقب حولي الأنام. . في شوارع وأسواق المدينة الحزينة تتدافع كالأنعام. . .

كان الناس يجرون فيها وكأن خلف كل منهم يداً تمسك عصاً غليظة أو سيفاً قاطعاً لا أحد يدري متى يهوي على رأسه أو يصفع قفاه. . .

نظرات حمراء حادة. . ، جباه مقطبة. . ، وأفواه لا تكاد تميز فيها إلا أنياباً تتهيأ للإفتراس. . . ماذا جرى للناس. . .؟؟

يتكدسون من أجل رغيف أزرق على شبابيك الأفران تكدس الذباب على بؤر القيح. . أو بقايا العظام تتصارع عليها كومة من صغار الفئران. . .!!

يتدافعون ويتناوشون على أبواب المجمعات ـ توزع المخصصات ـ تدافع الكلاب الضالة على الجيف أو بقع المخلفات. . .

يتخاطفون ـ بعد ضرب ونزاع، وتوسط وصراع ـ فاسد المعلبات. . النفايا والفتات. .

يحملونه ويجرون غانمين كمن يحمل غنائم حرب تحرير بعد طول هوان وانتكاس. . .

ماذا جرى للناس. . ؟؟

ترك الناس أرض الله الواسعة وانحشروا في زحام المدينة..
استبدلوا سماحة الريف وطيب العطاء بهباب المدينة وضيق الرجاء...، بأفواه مفتوحة وأيد كليلة..، بالفقر والاستجداء..، بالنصب والافتراء...
تركوا العمل بما يرضي الله والأنام...، واستكانوا لعيش الأنعام...

استغنوا عن ثراء الأرض بضروب من غنى الأوهام..، لا يروي ظمأ ولا يوفر الطعام..

استقسموا بالأزلام..، تعاطوا من ضروب العيش والرزق كل ألوان الحرام..

أتقنوا الغش والتدليس..، الرشوة والفساد..، الجري وراء تكديس الفلوس.. حتى غدا الناس ـ معظم الناس ـ في البلد الذي كان عفيفاً.. من ضعاف النفوس.

خلفت المدينة وعهدي بصباحها اللطيف يلتف بضباب خفيف يخلف الندى على دروب النرجس وتلال الياسمين..
عدت الآن لأجدها تتلفع بالهباب صباحاً وعند الغروب هباب يحرق جذور النرجس ويبتر عرائس الياسمين..

خلفت المدينة تحتضنها غوطة غناء.. وعدت إليها وقد غدت غابة من الاسمنت تعتصرها وتخنقها المحلقات...

كنا نلعب صغاراً في حواري المدينة المعبدة، يرشها عمال النظافة بماء القرب..، ويكنسونها بمكانس القش والقصب..، فنبحث عن الغبار في الدروب فلا نجد إلا العطور...

كانت شوارع المدينة المرصوفة بالأناقة موصوفة...، وبالزهور مصفوفة..، بالغابات محفوفة..، بالدعة والأمان معروفة...
فإذا بها تبدو مذعورة منتوفة، مبتلاة بصفوة متخمة من محدثي النعمة...، استبدلت بزهر الطبيعة زخرف الجحور...

واستأصلت خيام الياسمين لتبني بالاسمنت القصور..
استعاضت عن الحدائق الغناء والمقاصف المعهودة بفنادق الدرجة الأولى الموصودة المعدودة...

قال ابن عربان:

«واستطرد أبو العيال في الخطاب يصف الحال ويقول:

«رحت، في زحام المدينة، أقرع الأبواب..، أبحث عن مأوى بعد طول غياب..
أحلم باقتناء دار أقطنها بما أبقت لي برامج الاستثمار المنحوس من فلوس كدحت في جنيها خلال رحلة الاغتراب...

كلفت الأصحاب ورجوت الأحباب...، وما تركت سمساراً من سماسرة المدينة ـ وهم أكثر مما فيها من الأفران أو الأسرة في المستشفيات ـ إلا تقربت إليه بأعذب وأحلى الكلام... عله يحث المسعى في إيجاد ما أنشده من مأوى...

وطال أمد البحث الذي لم ألق فيه إلا يأساً بعد يأس...، وسخرية السماسرة الكبار من حديث أنشد فيه شراء دار بمال يحصى بالآلاف لا بالملايين..

وتزداد السخرية عندما يعلم السمسار أنني كنت مغترباً خارج الديار...، فالمغتربون موصوفون بالثراء الكبير.. وبأرصدة تثير الخيال من ينٍ ودولار...

وتزداد السخرية ويعلو الضحك إذا ما اضطررت ـ دفاعاً عن قلة مالي ـ أن أشرح ما أصابني من نحس الاستثمار مع برامج أبي الهول في الديار وخارج الديار...!!

واستمر الحال على هذا المنوال عدة شهور...
كدت أفقد معها الأمل في المأوى المنتظر..

ولشد ما كانت فرحتي كبيرة عندما فاجأني (أبو البدور) وهو سمسار مغمور في

دكان ضيق على الناصية محشور...
قصير القامة منتفخ الأوداج..، سريع اللفتات والنظرات...
نشيط رغم ثقل وزنه وقصر أطرافه...
كثير الكلام..، يدعي الإلمام بكل العلوم...
لا يبخل عن ذاته لحظة بحديث الفخر والإطراء من نجدة الملهوف ونصرة المظلوم...
من استقامة في حمل الأمانة..، وأمانة في الوساطة والقوامة..، فهو شديد الخشية من الحساب في يوم القيامة...
مكثر للصلاة مطيل..، حريص على الصيام..، يؤدي الفروض والأنفال...

أسرَّ لي (أبو البدور)..، وهو يلهث من الحبور..، بأنه قد وجد لي داراً تحقر أمامها الدور.. وتنذر من أجلها النذور...
وأننا لا بد من أن نعاين الدار في ذات النهار وأن نجلس وصاحبها «للبازار» في الغد دون انتظار...

دعانا أبو البدور للبازار بعد أن عاينا الدار
دار صغيرة في أطراف المدينة تدور في فلك المليون..
قرأنا الفاتحة..، ودفعنا العربون.. وقد حرص أبو البدور أن يكون نصف مليون... حتى نضمن ـ كما قال ـ البيع الثمين...

وقبض أبو البدور من رأس الكومة، نصيبه من العمولة..، وخرج يفرك كفيه للإنتصار الكبير الذي حققه للعبد الفقير..

وأخذ يلمح بعدها إلى ما تكبده من عناء وما عاناه من نصب في إبرام هذا البيع «اللقطة» الذي يبدو في نظره أثمن من اقتناء الذهب

وأدركت المقصود من عناء أبي البدور فنفحته بضعة آلاف أخرى فوق ما تقاضاه من عمولة جزيلة عن البيع.. وتوكلت على الله.. فالمال مع أبي البدور لا يضيع...!!

وجلسنا نرقب الأجل المسمى لإكمال البيع والتسجيل وحزم المتاع والترحيل..، إلى الدار التي فرغ صبر العيال وأم العيال فيها شوقاً للاستقرار...

وأخذنا نطوف في الأسواق..، تلفنا الأحلام والأشواق..، لكل جديد يلمع..، وأنيق يسطع..، من الأرائك والفراش..، والوسائد من أجود القماش

نفرش غرف الدار في الخيال..، بأحسن ما يجود به الحال...

ندفع عربوناً بعد عربون لكل ما نستلطف من الأثاث الثمين...

حتى حل الأجل الموعود..، وجاء اليوم المعقود.. يوم تسجيل الدار..، وإنهاء القيود..

قصدت مقر أبي البدور..، فما وجدت إلى الصبي الصغير يخبرني أن المعلم قد قصد الشاطىء المعمور..، ينعم بلطف الأمواج في الصيف الوهاج

عدت أتقصى هاتف بائع الدار.. طلبته..، فأجاب بالترحاب...
دعوته لإكمال البيع والتسجيل...
فتلعثم وأجاب بأن له شريكاً في الدار خارج الديار.. ينتظر أوبته بعد غياب...
وأن الأمر لن يستغرق إلا أيام يعود بعدها الشريك فنستكمل العقود وتسلم الدار من الباب...!!
فعدت أقول لا حول ولا قوة إلا بالله..، وأرجو أن يكون في التأخير خير...

ومضت الأيام..، أعقبتها الأيام.. لا أبو البدور عاد فيها من الشاطىء المعمور..، ولا شريك بائع الدار شرف الديار...

فشددت الرحال إلى الشاطىء علّي أقف من أبي البدور على حقيقة الأمور..
لم يخب ظني..، فقد وجدت أبا البدور مختصراً إطاراً أسود..، يقوم به الموج ويقعد..، كالكرة على سطح الماء...

يصيح مع كل موجة وسط مجموعة من الأطفال يرددون خلفه كالكورال: هيلا هوب. . ، هيلا هوب. . .
وجلست على الشاطىء أرقب المشهد الطروب. . ، أنتظر الغروب. . ، وأردد مع المجموعة من بعيد: هيلا هوب. . ، هيلا هوب. .

اختفت الشمس وراء الأفق وأظلم الشفق. . ، وبدأ أبو البدور يتمخطر خارجاً من المياه يتقدمه كرشه الكبير ويحيط به الصغار. .

(ها أبا العيال. . ، أنت هنا. . ، لماذا لم تشاركنا متعة العوم. . ، إنها المتعة بعينها بعد لفح الهجير وزحام العمل الكثير. . ، هل تنزل قريباً من هنا. . ، لماذا لم تخطرنا. . .
تعال. . ، تعال يا أبا العيال. . ، فنجان من الشاي مع بوادر المساء ينسيك كل العناء. . .)

ولم أَدَعْ أبا البدور يسترسل في الترحيب. . ، شرحت له الحال وأفهمته أنني لم أرد الشاطىء سائحاً متنزهاً. . ما أتيت إلا رجاء توسطه إكمال ما بدأناه في عقد عقدناه. . ومنزل شريناه بجهده الكبير وسعيه المشكور. .
فوعد أبو البدور ببحث الأمر من الغد دون تأخير وعدت أرجو من الله العلي القدير. . ، التهوين والتيسير. .

قال ابن عربان:

«واسترسل أبو العيال في خطابه يصف ما حدث بعد ذلك فيقول:

«طال انتظاري عودة أبي البدور. . .
وعندما أخبرني الصغير في المقر المشهور بعودته بالأمس. . وأنه ينتظر قدومه للدكان دون تأخير. . ، جلست أنتظر حتى أَهَلَّتْ طلعة أبي البدور البهية وبادر بالتحية. . .
ها أبا البدور. . ، كيف الحال. . ، وما هي الأخبار. . ، أخبار عقد الدار. . ؟؟
فرد أبو البدور بوجوم واقتضاب بما يفيد أن صاحب الدار قد أغلق دونه

الباب..، ولم يحظ منه بجواب..، وأنه قام بتوسيط بعض الأصحاب ففهم منهم أن صاحب الدار يشعر بغبن شديد.. بعد أن ارتبط ببيع الدار دون أن يستشير أسواق المال.. عن حال الدولار.. الذي ارتفعت أسعاره وطار بعد بيع الدار..، وأنه ـ أي صاحب الدار ـ يريد أن يعاد تثمين الدار بالسعر الجديد للدولار العتيد...!!

وطفق أبو العيال في خطابه يقول:

«تركت أبا البدور يسب ويثور..، وألقيت على عتبة الرصيف أمام دكانه المغمور أحلام اقتناء الدار...

سرت أترحم على أبي الهول.. وأتذكر لعبة الين والدولار...

أين أنت يا أبو الهول.. تعال لتشهد لعنة الدولار وقد لحقتنا للديار...

أين أنت يا أبو الهول لترى كيف استعبد الدولار الكبير وأفسد الصغير...

أين أنت يا أبا الهول لترى بصمة الدولار وقد طبعت جباه الجباة فمحت سمة الصلاة...، أين.. أين التقاة..؟؟

وأردف أبو العيال في الخطاب يقول:

«خلفت أبا البدور دون عودة..، وتركت أمر صاحب الدار للجبار...

ووكلت من الأصحاب من يسعى لتحصيل العربون بالتقسيط إن أمكن بعد أن سدد به صاحب الدار الديون وفرج عن حاله المرهون..

أدرت ظهري للمدينة الحزينة..، وشددت الرحال صوب الجبال..، دون مال..، إلى أرضي الموروثة التي أقسمت أن أعمل بها بيدي بعد طوال إهمال..

بررت بقسمي..، وجد معي العيال..، فما دلف الصيف حتى كانت الأرض تستعد للابتسام بالزهور... وتبشر بيانع الثمر.. وأبرك الغلال

وهكذا يا ابن عربان

عدت إلى الأصول
فما كان أغناني عن جولات الاستثمار. . .
وعن غربة الديار. . .
هنا يا ابن عربان ـ في الأرض ـ تلقى حقيقة الثروة وصادق المال. . .

ما لي ولزحام المدينة
وما كان أغناني عن برامج الاستثمار اللعين. .
فالثروة فينا يا ابن عربان. .
في ترابنا الثمين. .

تعال يا ابن عربان لتشهد بركة الأرض عندما تثمر بالجد وترد جميل العناء بوافر العطاء. . .

تعال لتشهد كوخ الطين وقد غدا داراً تبز كل دور المدينة مما يثمن بالدولار الثمين ويثقل أصحابه بالديون والرهون. .

أستحلفك الله يا ابن عربان أن تأتي لزيارتنا لترى بنفسك حلاوة الانتصار. . . فلا تطيل بنا الانتظار».

وهكذا. .، قال ابن عربان، ختم أبو العيال خطابه بدعوتي للزيارة. . وكانت دعوة في وقتها. .، فمن بين كل الأحوال التي تلفنا والأخبار التي ترمي بنا من إحباط لإحباط. . .
كانت دعوة أبي العيال تخرج النفس من لوعة الإحباط لفرحة الانتصار. . .
فآليت على نفسي أن ألبي دعوة أبي العيال لزيارته هناك في الجبال.